

التمثيلات الاجتماعية للوشم في الفضاء الحضري، دراسة ميدانية بمدينة وهران
Social Representations of Tattooing in the Urban Space: A Field Study in the City of Oran

أحلام حبيب قرين^{1*}، مهدي سويح²

¹ جامعة وهران 2 – محمد بن أحمد (الجزائر)، habibigrinahlem@gmail.com

² جامعة وهران 2 – محمد بن أحمد (الجزائر)، mehdi.souiah@univ-oran2.dz

تاريخ الاستلام: 2025/07/18 تاريخ القبول: 2025/07/23 تاريخ النشر: 2025/07/31

ملخص:

يحاول هذا المقال استطلاع التمثيلات الاجتماعية للوشم في الفضاء الحضري بمدينة وهران، باعتباره ممارسة اجتماعية قد تُعبر عن تحولات عميقة في أنماط العيش والهوية لدى فئة من الشباب. ينطلق البحث من فرضية مفادها أن الوشم في شكله الحديث لم يعد مجرد امتداد لطقوس تقليدية، بل أصبح وسيلة للتعبير الفردي والتفاوض على الانتماء داخل مدينة تتميز بـ "المجهولية" كما وصفها لويس ويرث. اعتمدت الدراسة على المنهج الإثنوغرافي، من خلال مقابلات وملاحظات ميدانية أجريت مع موشومين وواشمين وسكان حضريين عاديين. وقد كشفت النتائج عن تعدد دلالات الوشم، بين الرغبة في التفرد، والتمرد، والانتماء، أو حتى العلاج، كما أبرزت التناقضات في التمثيلات الاجتماعية بين فئات المجتمع، وفقاً للجنس، والموقع الاجتماعي، وسياق الظهور. ويخلص المقال إلى أن الوشم يشكل اليوم مرآة تعكس تعقيد الحياة الحضرية، وتعبيراً دالاً على التحول الثقافي والاجتماعي في المدينة الجزائرية.

الكلمات المفتاحية :

الوشم، التمثيلات الاجتماعية، المدينة، وهران، الشباب، الهوية، الأنثروبولوجيا، المجهولية، التحول الاجتماعي، الفضاء الحضري.

Abstract :

This article explores the social representations of tattooing in the urban space of Oran, Algeria, considering it as a social practice that reflects deep transformations in identity, values, and modes of life among youth. Based on the hypothesis that modern tattooing no longer merely extends

traditional rural rituals but rather serves as a means of self-expression and negotiation of belonging, the study adopts an ethnographic approach. Through fieldwork that included interviews and direct observations involving tattooed individuals, professional tattoo artists, and urban residents, the research reveals a multiplicity of meanings attributed to tattoos—ranging from rebellion, distinction, and identity formation to therapeutic use. The findings also highlight how social perceptions of tattoos differ depending on gender, social status, and context. Ultimately, tattooing appears as a symbolic marker of contemporary urban life in Algeria, reflecting both freedom and social constraints within a shifting cultural landscape.

Keywords:

Tattooing, Social Representations, Urban Space, Oran, Youth, Identity, Anthropology, Anonymity, Social Change, Urban area.

1. مقدمة:

نحاول من خلال هذا المقال أن نكشف عن مدى تعقيد الواقع الاجتماعي الحضري، وذلك عبر استكشاف إحدى الممارسات الاجتماعية التي، وإن بدت محتشمة وهامشية، فإنها تظلّ دالة على التحول الاجتماعي، ونعني بها الوشم عند الشباب في الفضاء الحضري بمدينة وهران.

ومما لا شك فيه أنّ شكل الوشم الذي نتناوله في هذه الدراسة يختلف عن الأشكال المعهودة في السابق، والتي تناولتها دراسات ركزت على دلالاته في شكله التقليدي، ويمكننا أن نستدل ببعض منها، ونذكر على سبيل المثال الدراسة التي أجرتها الباحثة حلايمية دلال والتي تحمل عنوان: "الوشم و لغة الجسد دراسة سيكوسيميائية المرأة الشاوية نموذجاً" (حلايمية، د. 2021)، ورسالة ماجستير حياة قنفيسي: "الرمزية الاجتماعية للوشم في منطقة القبائل بين التقليد والحداثة: تحليل محتوى الرموز إستناداً إلى حرفتي الفخار والنسيج" (قنفيسي، ح. 2006).

أما الشكل الذي هو محل دراستنا اليوم، فيحمل دلالات مغايرة، ويعكس تمثّلات اجتماعية متعدّدة، سواء تلك التي يُجسّدها الوشم نفسه، أو تلك التي تتحكّم في إصدار الأحكام القيمية والإقصاء الرمزي تجاه الشخص الموشوم.

وهي ذي الفكرة التي تدفعنا إلى محاولة استطلاع هذا التحول، من خلال العمل الميداني الذي أنجز، لاختبار الفرضية القائلة بأن الوشم، في شكله الحالي، وفي فضاءات صناعته، وعلى أجساد من يضعونه،

بات جزءاً من نمط الحياة الحضرية كما صوّره لويس ويرث، ومؤشراً على أحد أوجه "المجهولية" التي تُعدّ، بحسب كوليت بيتوني، من الخصائص المؤسسة لهذا النمط. وذلك حتى إن بقي ممارسة هامشية كما سبق وأشرنا.

وذلك في سبيل الإجابة على السؤال الآتي: كيف يمكن قراءة التغيّر الاجتماعي، والتحوّل في نمط الحياة داخل الفضاء الحضري الوهراني، من خلال الغوص في عالم التمثيلات الاجتماعية التي تحيط بالوشم وتحكّم فيه؟

2. المنهجية المتبعة

تُعدّ الأنثروبولوجيا علماً يقوم على الوصف، الأداة المركزية لفهم الظواهر الاجتماعية وتحليلها، ويرتكز في مقارباته على العمل الميداني. وفي هذا السياق، اعتمدنا في دراستنا على المنهج الإثنوغرافي، جملة من التقنيات المستخدمة في جمع المعطيات الميدانية لخدمة هدف واحد، تقديم وصف دقيق للأنماط الثقافية داخل جماعة بشرية معيّنة. المقابلات الحرة والموجهة (مستندين على دليل، كان موضوع مقالنا هذا محورا ضمن المحاور) مع الواشمين، المهنيين (واشمين مختصين، ومشتغلين في مجال التجميل) وكذا أفراد من المجتمع الحضري. استندنا كذلك على الملاحظة المباشرة داخل فضاءات ممارسة الوشم من ورشات وصالونات التجميل. وقد أتاح لنا هذا المنهج تحليل الممارسة المدروسة من خلال تتبع مكوناتها الرمزية، واستكشاف ما تحمله من قيم ودلالات ومعاني، بغرض بلوغ الهياكل اللاشعورية كما يسميها كلود ليفي ستروس فيكون هدف الباحث الأنثروبولوجي "الوصول وفهم الهياكل اللاشعورية التي تبنى على أساسها المؤسسات البشرية" (Lévi-Strauss, Cl., 1964)، وهي ذات الهياكل التي تتحكم في بلورة التمثيلات الاجتماعية والتي تسمح لنا للوصول إلى آليات التمثّل، والإدماج أو الإقصاء الرمزي المرتبطة بهذه الممارسة.

3. عن الوشم، التمثيلات الاجتماعية والفضاءات الحضرية

وددنا في البداية أن نعطي محتوى لمفهوم التمثيلات الاجتماعية. فمنذ منتصف القرن الماضي، أصبحت التمثيلات الاجتماعية من المفاهيم المحورية التي تتيح التداخل بين فروع العلوم الاجتماعية. هذا المفهوم، الذي نُظر إليه في السوسيولوجيا منذ إميل دوركايم، تبنّاه لاحقاً علماء النفس الاجتماعي، ليحضر بقوة في الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة المهتمة بفهم العوالم الحديثة. هذا التوقع الإستمولوجي مهم، لأنه يسمح للقارئ بأن يعي أن مجهود التفكير الأنثروبولوجي المبذول في هذا المقال هو في الواقع مجهود منفتح

على باقي العلوم الاجتماعية: السوسيولوجيا بالتأكيد، ولكن كذلك علم النفس، لأن الاندماج الاجتماعي، شأنه شأن الإقصاء، هو تجربة نفسية قبل أن يكون مجرد آليات اجتماعية.

يمكننا الاستناد في تعريف التمثلات الاجتماعية إلى ما كتبه دونيس جودليه، إذ تقول:

"هي شكل من أشكال المعرفة التي تُبنى اجتماعيًا، والتي لها وظيفة عملية تساهم في تشكيل الواقع الاجتماعي المشترك" (Jodelet, 1989, p. 36).

وبالرابط مع موضوع الوشم، نقترح النظر إليه كممارسة اجتماعية، ما يفرض علينا الكشف عما يتحكم في هذه الممارسة من رؤى للعالم ومن تمثلات اجتماعية. البحث في الدوافع التي تجعل الفرد يلجأ إلى الوشم هو بحث في "الحتميات" التي تقف خلف تبني هذه الممارسة: البيئة الاجتماعية، المسار الشخصي، التأثير باتجاهات الموضة، أو حتى عقد نفسية وجسدية.

وفي هذا السياق، نورد ما جاء في دراسة حبيب قرين (2025)، حيث تقول:

"فكل هذه الحتميات تولد لدى الفرد ما يجعله يلجأ إلى ورشة الوشم أو صناعة الآلة التي تمكنه من ذلك" (حبيب قرين، أ.، 2025: 74).

كما نضيف أن للفرد الموشوم صورة اجتماعية تختلف حسب البيئة التي يوجد فيها، ففي فضاءات يُقبل فيها الوشم كممارسة طبيعية، بينما في فضاءات أخرى يُنبد تمامًا (وسنعود إلى هذه الفكرة لاحقًا).

ارتأينا في البداية أن نُقدّم تعريفًا إجرائيًا للتمثلات الاجتماعية، لأنه يتيح لنا اختيار التعريف الملائم للفضاء الحضري الذي تتعلق به دراستنا. فالمدينة، كما يرى يف غرافمايار، هي "تشكيل اجتماعي ومجالي" (Grafmeyer, Y., 1994)، بمعنى أنها ليست فضاءً محايدًا، بل شكل مادي يُجسّد التفاوتات الاجتماعية، وعلاقات السيطرة والسلطة، ويؤجّه أشكال التكافل والتضامن، ويتيح ممارسات اجتماعية معينة ويرفض أخرى.

وهذه الفكرة الأخيرة (المدينة كفضاء يتيح أو يرفض الممارسات) هي ما يعيننا هنا، إذ تجعلنا نتساءل عن مكانة الوشم كممارسة داخل الفضاء الحضري الوهراني. ومن خلال هذا التساؤل، يمكننا رصد وفهم التمثلات الاجتماعية المرتبطة بالوشم، ومن خلالها استشفاف نمط العيش المتغير الذي بات يميّز مدينة وهران. ولربما علينا أن نقرأ هذا التغير والتحول الطارئ في الفضاء الحضري الوهراني على ضوء ما جاء به لويس ويرث في تعريفه لنمط الحياة الحضري، فحسب رأي ويرث المدينة تنتج شكلًا اجتماعيًا متميزًا تكونه كل من العناصر التالية: "علاقات اجتماعية متجزئة" (بحكم الكثافة، هناك التقاء أكبر بين الأفراد ولكن

تبقى حيوية، مؤقتة وسطحية)، "المجهولية"، "التخصص في الأدوار الاجتماعية" وأخيرا "قبول الاختلاف" الذي هو حسب رأيه نوع من الاختلال في التنظيم الاجتماعي ناتج عن تصاعد الفردانية (Wirth, 1996, p. 170).

هذا السرد النظري هو في الواقع محاولة في بناء موضوع الدراسة، مهم جدا فهم العلاقة بين العناصر الثلاث (الوشم كممارسة، المدينة كمسرح للحياة والتفاعلات، ونمط العيش الذي يفرز جملة من التمثيلات) فلا يمكننا أن نعي بالمكانة التي يحتلها الوشم داخل الحياة الاجتماعية (الفضاء الحضري الوهراني، هنا) إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار كل العناصر المذكورة.

4. الوشم الحديث... ممارسة حضرية

ما هو مؤكد، وهذا ما تثبته الدراسات، ومن بينها تلك المذكورة سلفاً (حلايمية، د. 2021؛ قنفيسي، ح. 2006)، أن الوشم في شكله التقليدي، خاصة في المنطقة المغاربية، كان ممارسةً ريفية بامتياز، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالطبيعة، ويحمل نسقاً من التمثيلات الاجتماعية يختلف تماماً عن ذلك الذي يتحكم في الشكل الحديث للوشم.

وتجدر الإشارة هنا إلى الإسهام القيم الذي قدّمه الباحثان إبراهيم مكيد وبقة بالخير (2025)، حيث يؤكدان على تداخل الغايات في ممارسة الوشم التقليدي؛ فحتى وإن كان هناك حرص على أن يكون عنصراً تجميلاً، فإن ما يُرسم على الجلد في البيئة التقليدية – وغالباً ما تكون ريفية – يكون في العادة محملاً بدلالات تطبيقية أو سحرية. كما تشير الباحثة مباركة بلحسن أن للوشم دور في إظهار المكانة الاجتماعية والتميز الطبقي، "فكل غموض يزامن علاقة الفرد بجسده الخاص يجد في الوشم وسيلة لتعبير ذي امتياز، فالعلاقة الاجتماعية تثمين وزخرفة حقيقية للسحر والفتنة كما أنه يمكن أن يطبع انتماء الشخص" (بلحسن، م. 2019: 110).

إذا كان الوشم في الماضي يُعدّ ممارسةً شائعة في الأوساط الريفية، حيث كان السكان يتمركزون في القرى وضواحي المدن ذات الطابع الريفي الغالب، فإن معاييرها الاجتماعية والثقافية كانت تُقبل ضمن هذا السياق. فوفق المعطيات السكانية، نجد أن الغالبية كانت تقيم خارج النسيج الحضري الصارم، ما يجعل من الوشم آنذاك ظاهرةً ريفية الطابع ومقبولة اجتماعياً.

أما اليوم، فقد انتقل الوشم إلى الفضاء الحضري ليصبح ممارسةً مدنية بامتياز، خصوصاً في المدن الكبرى، حيث تتركز ورشاته ومحلات التجميل التي تُقدمه كخدمة ذات طابع فني وجمالي. هذا التحول يدلّ

على تغير في تمثيلات المجتمع إزاء الوشم، من ممارسة تقليدية ذات أبعاد ثقافية ومحلية، إلى شكل من أشكال التعبير الفردي والهوية الحديثة المرتبطة بأنماط الحياة الحضرية.

5. الوشم من وجهة نظر الموشوم

هناك عوامل عدة تجعل الفرد يذهب إلى ورشة الوشم، أو يقتني أدوات تمكنه من رسم الأوشام على جسده. و الفكرة الأولى هو أن ما يجعله يخطو خطوة كهذه هو ما أشارت إليه مباركة بلحسن إذ تقول: "العلامة على البشرة تموضع الواشم في بعد نرجسي في البحث عن هويته، لأنه يوضع من أجل جلب الأنظار، وقد يخفي سرا بخصوص جزء غير مرئي للجسد. إن العلامة على البشرة تتقلد غالبا مفهوما شهوانيا جنسيا قوي، والبشرة هدية للواشم مثل قماش الرسم" (بلحسن، م. 2015: 110). بطبيعة الحال، السياق الذي كتب فيه هذا المقتطف يختلف عن سياق الدراسة التي نحن بصدد استطراد نتائجها، فسياق المقولة مرتبط بواقع إثنوغرافي مختلف، المرأة الحسانية في علاقتها مع الجسد وتصورات الجمال، ولكن ما يهمنا نحن في هذه الفكرة هو ذلك "البعد النرجسي" كحتمية من الحتميات التي تتحكم في تبني الوشم. فتكون الغاية إعادة في تشكيل الهوية، الظهور بشكل مختلف والأهم من ذلك إظهار هذا الاختلاف. بطبيعة الحال هناك مجموعة من العوامل التي تجعل من وضع الوشم كمشروع أن يتشكل. إن انتشار صالونات التجميل الذي تعرض الوشم كخدمة للزبائن وكذا الورشات المختصة معناه أن هناك طلب قد بات ملحا. لا يمكننا فهم هذا الطلب إلا إذا وسعنا زاوية الملاحظة، وأدرجنا متغيرات ليست مرتبطة بالضرورة بالمحلي المدروس. فالوشم "الحضري" أصبح ظاهرة عالمية، يسوق لها ويروج لها على كل المنصات، فعلى المستوى العالمي يمكننا اعتباره توجها، ظاهرة موضوعة، مرتبطة باستهلاك المواد الفنية (الموسيقى، الفن، الإعلام، الخ.) والرغبة في اثبات الذات وتشكيل الهوية استنادا على مرجعيات ثقافية بعيدة عن المرجعية الثقافية المحلية. حتى وإن كان تبني هذه المرجعيات يأخذ في بعض الأحيان طابعا محليا. نقرأ مثلا في دراسة حبيب قرين، فيما تسميه بوهم التأكيد أن جملة من المبحوثين في تبنيهم للممارسة يرسمون على جلودهم عبارات ذات دلالة ووزن رمزيان تجعلنا ندرك انتمائهم للبيئة الثقافية المغاربية بشكل عام والوهرانية بشكل خاص. فمثلا الأوشام التي تحمل معاني القيم المحلية كذاك الذي نراه على ذراع أحد المبحوثين "أمي حيي الأول والأخير" أو "أمي حياتي" على جسد آخر وعبارات مماثلة تؤكد صحة ما نقول (حبيب قرين، أ. 2025).

قد يكون الوشم أيضاً تعبيراً عن رفض النظام السائد ومقاومةً لمنظومة القيم المفروضة، وقد تمكنا من ملاحظة ذلك في أكثر من مناسبة. فقد صرّح لنا عدد من أصحاب الأوشام بأن الوشم يمثل بالنسبة لهم شكلاً من أشكال الحرية... حرية التصرف في الجسد كما يشاؤون، في معارضة صريحة لمنظومة القيم التي

تُقَدَّس الجسد وتُرفض أي ممارسة تُشَوِّه خلقته. فالحرية، بالنسبة لهذه الفئة، تُعادل في معناها مقاومة النظام القيمي والمعياري القائم.

الحرية، دائمًا، ما ترتبط في تمثيلات بعض الموشومين بهواجس وأحلام بالهروب والترحال. وتُجسّد بعض الرموز هذا المعنى بشكل واضح، ومن أبرزها "البوصلة"، التي يستخدمها بعضهم للتعبير عن تجربته في الهجرة غير الشرعية. فقد صرّح أحد المبحوثين بأن "البوصلة" تعني بالنسبة له "داير"، في إشارة إلى تنقله بين البلدان خلال رحلته كمهاجر غير نظامي.

وفي السياق ذاته، وردت على لسان أحد المبحوثين عبارة "مدوّر زربوطي"، حيث يُحيل مصطلح "الزربوط" - وهي لعبة أطفال شعبية - في المخيال الجمعي إلى القدرة على التأقلم مع الدوران والصدمات، وهو ما يتوافق مع معاناة المهاجر غير الشرعي وتقلّبات رحلته. من هنا، يتضح أن الرغبة في السفر، كما تظهر في رموز الوشم، قد تعبّر إمّا عن مرحلة من مراحل تشكّل مشروع الهجرة، أو عن شغف حقيقي بالتنقل والانفصال عن واقع خانق.

يشكّل الوشم بالنسبة لفئة من الموشومين عنصرا من عناصر بناء الهوية الاجتماعية، حيث يُنظر إليه كرمز دال على الانتماء والتموقع داخل جماعات أو فضاءات اجتماعية معيّنة. ومن خلال المنظور التفاعلي الرمزي، يتبيّن أن معاني الوشم ليست ثابتة، بل تتغيّر تبعًا للسياقات الاجتماعية؛ فقد يُحمل دلالة إيجابية في بعض البيئات المغلقة مثل السجن، بينما قد يُصبح مصدرًا للوصم في فضاءات أخرى. وهذا، يغدو الوشم أداةً لتجسيد الأدوار الاجتماعية ووسيلةً للتفاوض حول الهويات الفردية والجماعية، ما يضيف عليه طابعًا معقدًا تتداخل فيه الأبعاد النفسية والاجتماعية والدينية. فنقول بذلك أن فئة معيّنة من الشباب في الفضاء الحضري تلجأ إلى الوشم كوسيلة لإثبات الانتماء الذاتي والاجتماعي. « عندما يُقدِّم الفرد نفسه أمام الآخرين، فإنه يعيّن نشاطه ليمنحهم انطباعًا يتوافق مع مصالحه » (Goffman, 1973). تنسجم فكرة غوفمان تمامًا مع تحليل الوشم بوصفه أداة لـ"مسرحة الذات" وتمثيلها، وكتقنية رمزية للتفاوض حول الهوية، لاسيما في السياقات التي يسعى فيها الفرد إلى إبراز تميّزه، أو انتمائه، أو مقاومته للمعايير الاجتماعية السائدة.

في ظل هذا التنوع، يُمكن فهم الوشم بوصفه أداة لإعادة تشكيل الهوية والتفاوض عليها داخل سياقات اجتماعية متغيرة. فهو تارةً علامة انتماء لجماعة، وتارةً رفض لمنظومة قائمة، وتارةً أخرى مسرحٌ يُبرز فيه الفرد ذاته بشكل جديد ومغاير. كما تتقاطع هذه الرؤية مع تصور إرفينغ غوفمان الذي يرى أن الفرد حين يقدم نفسه للآخرين، يسعى إلى ترك انطباع يخدم مصالحه، وهو ما يجعل من الجسد الموشوم خطابًا مفتوحًا، متعدد الطبقات والدلالات. حاولنا مما سبق أن نسدل الستار على جوانب من التمثيلات

التي تؤدي بالشباب إلى تجسيد مشروع الوشم، ولكن ماذا عن رأي المجتمع الحضري الوهراني إزاء الوشم والشخص الموشوم؟

6. الوشم من وجهة نظر الجالية الحضرية

يعكس الوشم في الفضاء الحضري الوهراني (الجزائري) اليوم تحولاً لافتاً في علاقة الأفراد بأجسادهم ورموزهم الثقافية، وهذا ما حاولنا إظهاره سابقاً. فبعيداً عن معانيه التقليدية، أضحى الوشم ممارسة متعدّدة الأبعاد، تتراوح بين التقليد والانتماء والتمرد، وتخضع في تمثالاتها لمتغيرات اجتماعية وثقافية وعالمية.

1.6 في خانة "التقليد الأعمى"

جاء في شهادات المبحوثين أنّ فئة كبيرة من الشباب الذين يلجأون إلى الوشم، هم مدفوعاً برغبة في "مواكبة الموضة"، دون وعي حقيقي بالرموز أو الدلالات التي تُرسَم على أجسادهم. يُصبح الجسد هنا صفحة تُنقش عليها علامات تُستلهم من ثقافة بصرية عالمية (كأسماء فنانيين، رموز موسيقية، شعارات، الخ)، ما يعكس اختراق الرموز الكونية للمرجعيات المحلية. هذا التقليد، وإن بدا ظاهرياً حرية شخصية، إلا أنه يكشف عن علاقة معقّدة بالهوية، تتراوح بين الرغبة في التماثل مع صور عالمية، والقطيعة مع المرجعية الاجتماعية التقليدية. ما هو مثير للإنتباه، أن المجتمع له القدرة على إخراج بعض الفاعلين من خانة الوشم والتقليد الأعمى، وهنا يحضرنا مثال بعض من لاعبي الفريق الوطني، أندي ديلور ورايس مبولحي الذين يستظهرون أوشامهم بشكل خال من العقد، فتلتبس لهم الأعذار: "نشؤا في بيئة مختلفة"، "لم يتشبعوا بالقيم المحلية"، "الله غفور رحيم"، الخ. وعليه المكانة الاجتماعية والدور الذي يلعبه كل فرد من أفراد المجتمع قد تجعله محل الأحكام المعيارية والوصم أو بالنقيض من ذلك تصد عنه هذه الأحكام.

2.6 الوشم الطبي: بين الحاجة والعلاج

في مقابل البعد الزخرفي والجمالي، برز نوع من الوشم يُعرف بالوشم الطبي، يُستخدم لأغراض علاجية أو وظيفية، كما هو الحال مع بعض النساء بعد عمليات استئصال الثدي، أو مرضى داء السكري الذين يحملون وشمًا يوضّح حالتهم الصحية، أو حتى لاعبي الرياضة الذين يوشمون مناطق معيّنة لمتابعة العلاج الطبي. غالباً ما يتم هذا النوع من الوشم داخل عيادات متخصصة وتحت إشراف طبي، مما يمنحه مشروعية طبية مغايرة للوشم الجمالي. هذا التمييز يؤكد أن الوشم، وإن كان يُختزل في الغالب في بعده الرمزي أو الزخرفي، يمكن أن يحمل وظائف نفعية مرتبطة بالصحة والسلامة الجسدية. ما يجدر الإشارة إليه في هذا السياق هو أن هذا النوع من الوشم يُعدّ مقبولاً اجتماعياً، ولا يُعرّض صاحبه - في الغالب -

للوصم أو الإقصاء الاجتماعي. ولعلّ من المفيد التنويه إلى السبب الذي يجعل هذا الشكل من الوشم مقبولاً، وهو الاستناد إلى القاعدة الفقهية التي تقرّ بأن "الضرورات تبيح المحظورات". إن ما يؤدي إلى وصم الفرد وإقصائه اجتماعياً هو حياده عن المعيار الجمعي. وإذا أدركنا أن النظام المعياري تحكمه إلى حد بعيد التصورات الدينية، اتضح لنا سبب هذا التفاوت في التقبل الاجتماعي.

3.6 الوصم الاجتماعي: التمثيلات المتناقضة

رغم الانتشار المتزايد للوشم، لا يزال حاملوه في المجتمع الحضري يواجهون أشكالاً من الوصم الاجتماعي، خاصة من قبل الفئات المحافظة أو الأكبر سنّاً. يُنظر إلى الجسد الموشوم، خصوصاً لدى النساء، كمصدر "انحراف" أخلاقي أو كعلامة على "التمرد غير المشروع". الوشم لا يزال محمّلاً بحمولات قيمية سلبية، على الرغم من تحوّلته إلى ممارسة شبه "عادية" عند فئة واسعة من الشباب.

7. المناقشة على ضوء نمط العيش الحضري وميزة المجهولية

انطلاقاً من تعريف لويس ويرث للمدينة بوصفها "نمط حياة" وليس مجرد بنية مادية، يتضح أن ممارسات مثل الوشم لا يمكن فصلها عن خصائص الحياة الحضرية الحديثة، أو على الأقل يمكن تفسير حضورها ضمن هذا الفضاء. يشير ويرث إلى أن من أبرز سمات نمط الحياة المدني الكثافة السكانية، وما يترتب عنها من ظواهر كبرى مثل تقسيم العمل، اللامركزية الاجتماعية، وتراجع الرقابة الاجتماعية نتيجة المجهولية.

في المدينة، يغدو الفرد جزءاً من حشد هائل، وتتقلص العلاقات الحميمة، ما يضعف آليات الضبط الاجتماعي بالمعنى الدوركايمي، ويُفسح المجال أمام ممارسات كانت تُعدّ هامشية أو محرّمة اجتماعياً.

ضمن هذا السياق، يمكن فهم الوشم كأحد تجليات المجهولية، إذ تتحرر الذات من رقابة الجماعة، ويُصبح الجسد وسيلة لإعادة تشكيل الهوية. بالنسبة لفئة من الشباب، يشكّل الجسد ساحة لتعبيرات فردية تُمارس خارج سلطة البنى التقليدية. وتُوقّر المدن الكبرى – وعلى رأسها وهران في السياق الجزائري – هامشاً أوسع للتجريب، والتعبير، بل وحتى التمرد الرمزي، دون الخضوع الكلي لأحكام الجماعة المحلية.

ويدعم هذا المعطى ما ورد في شهادات بعض محترفي مهنة الوشم¹، حيث أشاروا إلى أن زبائنهم يأتون أحياناً من مناطق داخلية ومن مدن أقل كثافة من وهران، ما يؤكد أن الطابع الحضري للمدينة يوقّر مناحاً مناسبة لممارسات ترتبط بالمجهولية والانفلات من الرقابة الاجتماعية.

في دراسة سابقة لنا، تطرقنا إلى مسألة المجهولية في علاقتها بالمدينة، حيث حاولنا تحليل ممارسة ارتداء اللثام ونزعه لدى فئة من نساء حيّ رأس العين الهامشي في وهران. إذ تُقبل هؤلاء النساء على ارتدائه داخل الحيّ استجابةً لمتطلبات ثقافة الحيّ وشدة الضبط الاجتماعي فيه، بينما لا يشعرون بأي حرج في نزعه عند الولوج إلى الفضاء المركزي للمدينة. كتبنا في هذا الصدد:

"نرى في هذا الأمر سببين. أولهما أن الحرص على "ستر وجه" المرأة، بما يسمح بالحفاظ على "وجه" الرجل، لا يكون فعالاً إلا داخل الحيّ؛ إذ يفرض ارتداء النقاب من قبل الفضاء الرمزي، الذي يُشكّل أساس هوية معيّنة. هذا الفضاء يفرض قواعد سلوك ويُحدّد نمطاً معيّناً من اللباس، أما السبب الثاني، فهو أن التخلّي عن النقاب يظلّ ممكناً بفضل مناخ المجهولية الذي توقّره المدينة الكبرى. وهنا تكتسب عبارة كوليت بيتوني معناها الكامل، حين تعرّف المجهولية بأنها "غشاء واقٍ للفرد"؛ فهي بديل لغشاء فعلي (مادي) يتمثل في النقاب" (Souiah, 2019). وهو نفس هذا "الغشاء الواقٍ" الذي يُمكن أن يُفسّر – ولو بشكل محتشم – انتشار ظاهرة الوشم في الفضاء الحضري الوهراني، بوصفه تعبيراً عن الحرية، وإعادة تشكيل الهوية، في ظل مناخ المجهولية الذي تتيحه المدينة.

ما ينير مسألة الانتشار المتزايد للوشم بين الشباب الحضري، هو هذا الشعور بأنهم في فضاء "واسع بما يكفي" ليكونوا ذواتهم، أو ما يرغبون في أن يكونوا عليه. ومن هذا المنظور، فإن الوشم لا يُمثل فقط تقنيةً زخرفية، بل هو علامة رمزية على تملك الجسد وإعادة تعريف الذات، ضمن بيئة تفرض باستمرار إعادة التفاوض على الهوية والانتماء.

وربما يجدر بنا التوقف، ولو بإيجاز، عند مفهوم "الكثافة الأخلاقية"، والتي تُشير، بحسب دوركايم، إلى مستوى التفاعل والتقارب الاجتماعي بين الأفراد داخل الجماعة، أي إلى درجة تداخلهم المعنوي والنفسي، وليس فقط تواجدهم الفيزيائي في حيّز واحد. ويمكن القول إن هذه الكثافة، التي كانت تشكّل في السابق إحدى ركائز التنظيم الاجتماعي داخل المدينة، قد فقدت الكثير من فعاليتها اليوم. ويُعزى ذلك جزئياً إلى التحوّلات التي طرأت على بنية الأسرة، إذ نشهد انتقالاً تدريجياً من نموذج الأسرة الممتدة، القائمة على

¹ نقصد هنا صاحب ورشة وشم، ذوّصت عالي على منصات التواصل الاجتماعي، يبلغ عدد متابعيه قرابة الـ 100000 ألف متابع، أما الثاني، فهي مختصة الوشم في صالون للتجميل.

التضامن والرقابة الجماعية، إلى نموذج الأسرة النوواة، التي تُمنح فيها للفرد مساحة أكبر من الاستقلالية في خياراته، بما في ذلك تلك المتعلقة بالجسد والهوية الشخصية.

تستحضر هذه الفكرة ما صرّحت به إحدى الممرضات من واضعات الوشم، والتي تعمل في المستشفى الجامعي بوهران. حين اكتشفنا أنها ربة أسرة، بادرنّا إلى سؤالها عمّا إذا كانت تواجه أحكامًا اجتماعية من أسرة زوجها، فأجابت: "لا يهمني أمرهم، أنا زوجة زوجي، لا زوجة والديه وإخوته. وزوجي يحب أوشامي." هذا التصريح يختصر بدقة ديناميكيات جديدة داخل الأسرة الحضرية، حيث تنكشف سلطة الجماعة الممتدة، وتتعرّز مكانة الفرد داخل دائرة قراراته الخاصة، بما في ذلك حقّه في التصرف في جسده وفقًا لرغباته الذاتية.

غير أن هذه المجهولية لا تعني غياب الأحكام أو الوصم، بل تعني أن الوشم يفقد مركزته الأخلاقية، ويصبح موضوعًا للتأويلات المتناقضة، بحسب موقع الفرد الاجتماعي، وجنسه، وسياق ظهوره. فقد يُغفر للاعب كرة قدم أو فنان أن يكون موشومًا لأنه ينتمي إلى "عالم مختلف"، بينما تُوصم شابة بوشم صغير لأنها "كسرت الصورة المتوقعة عنها". وهذا التفاوت في التأويلات يعبر عن استمرار السلطة الرمزية للنظام القيمي، وإن كانت المدينة قد خففت من حدته، أو أخفته تحت قناع "الحرية الفردية". لأنه لزال، ما يؤكد ذلك، رفض مجموعة من الفتيات اللواتي يحملن أوشامًا مشاركتنا تجاربهن أو الإجابة على أسئلتنا، بسبب هاجس التعرّض للأحكام والوصم، وهو هاجس يلازمهن باستمرار، رغم أن وشمهن موضوعة في أماكن خفية من أجسادهن لا تُرى.

إن ما نراه اليوم من تعدد في دلالات الوشم داخل الفضاء الحضري هو انعكاس حيّ لخصائص هذا الفضاء كما صوّرها ويرث: حركية، فردانية، وتمايز طبقي وثقافي. والوشم، بهذا المعنى، يصبح مرآة لنمط العيش الحضري، بكل ما يحمله من تناقضات، حريات، وقيود رمزية غير معلنة.

8. خاتمة

ما حاولنا إظهاره من خلال هذه الدراسة هو أن الوشم، بوصفه ممارسة اجتماعية وشكلًا من أشكال التعبير الجسدي، لم يعد مجرد زخرفة عابرة أو استمرارية لطقوس تقليدية، غالبًا ما ارتبطت بالبيئة الريفية، بل تحوّل في الفضاء الحضري الوهراني إلى مرآة تعكس تعقيد الواقع الاجتماعي، ومظهر من مظاهر التحوّل الثقافي، وتعبير دالّ على التوتر القائم بين القيم التقليدية وأنماط العيش المعاصرة.

من خلال المقابلات والتحقيقات الميدانية، تمكّنّا من ملاحظة أن الوشم يكتسب معاني متعددة ومتناقضة: فهو لدى بعض الشباب وسيلة للتمرد، والتفرد، وتأكيد الحرية، بينما يُنظر إليه من قبل

آخرين كعلامة انحراف أو تقليد أجوف. وبين هذين التصورين، يتّضح أن التمثّلات الاجتماعية المرتبطة بالوشم ليست موحّدة، بل تتفاوت بحسب الجنس، والموقع الاجتماعي، والسياق الثقافي الذي يظهر فيه الوشم.

ومن بين الاستنتاجات التي توصّلنا إليها:

أن الوشم، في شكله الحالي بمدينة وهران، يرتبط بنمط العيش الحضري الذي يميّز، وفق تصور لويس ويرث، بالمجهولية، والتنوّع، وتفتّت الضبط الاجتماعي. وهي ميّزات تتيح للأفراد اختبار صيغ جديدة لتشكيل الذات وإعادة تعريف الانتماء، وذلك عبر الجسد الموشوم.

تُنتج المدينة، بوصفها فضاءً رمزيًا واجتماعيًا، شكلاً من التسامح الظاهري مع بعض الممارسات الهامشية، دون أن تُلغي تمامًا آليات الوصم والإقصاء. فالوشم يكون مقبولاً عندما يُمارَس من قبل فئات معينة أو ضمن سياقات طبية، فنية أو احترافية، لكنه يُرفض عندما يأتي من أفراد "عاديين" أو خارج التصنيفات المحمية اجتماعيًا. أن الوشم، من خلال رموزه وتوزيعه على الجسد، يعبر عن تمثّلات متشابكة تتعلّق بالهوية، والانتماء، والذاكرة، والمقاومة، بل وحتى بالهجرة. ما يجعل منه خطاباً مرئياً مفتوحاً، يتطلّب قراءة أنثروبولوجية دقيقة لفهم تشابكاته ودلالاته بناءً على ما سبق، يمكن القول إن دراسة التمثّلات الاجتماعية للوشم تتيح للباحث الغوص في العمق الرمزي للحياة الحضرية، وفكّ شفراتها، وفهم التحوّلات التي تعتمل داخل نسيجها في علاقتها بالجسد، والهوية، والقيم. فالوشم لم يعد مجرد أثر على الجلد، بل أصبح علامة دالّة على التغيّرات الثقافية والاجتماعية، وعلى الصراع القائم بين الأجيال، وبين دلالاته القديمة والجديدة، بين الامتثال والاختلاف، وبين الخضوع والتحرر.

إن مقارنة الوشم من زاوية التمثّلات الاجتماعية تمكّنتنا من التفكير في المدينة، ليس فقط بوصفها شكلاً مادياً وعمرائياً، بل كفضاء يُعاد فيه تشكيل الإنسان المعاصر، بكل ما يحمله من تمزّقات وآمال ورموز.

المراجع العربية:

بلحسن، مباركة. (2019). المرأة الحسانية وثقافة الجسد: مقارنة أنثروبولوجية للجسدية. سطيف: الوطن اليوم.

حبيب قرين، أحلام. (2025). الوشم في الفضاء الحضري الوهراني: تمثّلات اجتماعية وهوية شبابية (مذكرة ماستر غير منشورة، إشراف أ.د. بريجة شريفة). جامعة وهران 2.

حلايمية، دلال. (2021). الوشم ولغة الجسد: دراسة سيكوسيميائية، المرأة الشاوية نموذجاً. دفاثر مخبر

الشعرية الجزائرية، (1)6، 46–38 <https://asjp.cerist.dz/en/article/150820>

قنفيسي، حياة. (2006). الرمزية الاجتماعية للوشم في منطقة القبائل بين التقليد والحداثة: تحليل محتوى الرموز استناداً إلى حرفتي الفخار والنسيج (أطروحة ماجستير غير منشورة). جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية.

مكيد، إبراهيم، وبقة، بلخير. (2025). رمزية الوشم لدى المرأة في منطقة تيارت بين العلاج والتجميل. مجلة العلوم الإنسانية والحضارة، 7(1)، 64-

<https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/730.82>

المراجع الأجنبية:

Durkheim, É. (1898). *Représentations individuelles et représentations collectives*. *Revue de Métaphysique et de Morale*, 6, 273–302.

Goffman, E. (1973). *La mise en scène de la vie quotidienne. Tome 1 : La présentation de soi* (J.-P. Mayer, Trad.). Paris : Éditions de Minuit. (Œuvre originale publiée en 1959)

Grafmeyer, Y. (1994). *Sociologie urbaine*. Paris : Nathan Université.

Jodelet, D. (1989). Représentations sociales : un domaine en expansion. In D. Jodelet (Éd.), *Les représentations sociales* (pp. 47–78). Paris : Presses Universitaires de France.

Lévi-Strauss, Cl. (1962). *La Pensée sauvage*. Paris : Plon.

Souiah, M. (2019). De la présence féminine dans la rue : Stratégies d'accèsion à l'espace public dans un quartier spontané, Ras El Ain – Oran (Algérie). *Revue Africaine de Sociologie / African Sociological Review*, 23(2), 96–109.

Wirth, L. (1996). Le phénomène urbain comme mode de vie. In Y. Grafmeyer & I. Joseph (Éds.), *L'École de Chicago. Naissance de l'écologie urbaine* (pp. 165–184). Paris : Aubier.